

كتاب الشهر

محطات من تجربة فكرية وطنية ومحاولة لتشخيص الأزمة البروفسور فيليب سالم يعالج أمراض لبنان

فيليب سالم معروف على نطاق واسع في عالم الطب الذي لمع فيه منذ أكثر من نصف قرن. لكنه هنا يخوض في مجال مختلف تماما. في كتاب «رسالة لبنان ومعناه» نكتشف الوجه الآخر له. مجموعة المداخلات والمقالات المنشورة في الصحافة اللبنانية في مناسبات مختلفة، على فترات زمنية متنوعة، تتكامل وتأخذ شكلا متماسكا، لتسلط الضوء على رؤية سياسية واجتماعية واقتصادية الى الوطن كما يحلم به الكاتب، ومقارباته الخاصة للاستحقاقات والمشكلات المزمنة التي تواجهها، وتصوراتها لكيفية اخراج لبنان من كبوته



غلاف الكتاب.

الإخطل الصغير مات قبل موته الجسدي بسبب الفقر والعوز في غياب تقدير للمبدعين في وطننا

عقود على الكتابة والتأليف ونشر المقالات عن رؤيته الفكرية والحضارية الى لبنان المستقبل. واكب مختلف المراحل المفصلية والمطبات التي مر فيها هذا الوطن من خلال مقالاته المنشورة في جريدة «النهار». سواء وافقت على طروحاته ام لم توافق، الا ان الاكيد ان هذا البروفسور اللامع عاهد نفسه منذ الطفولة على التزام القضايا الكبرى، اذ «لا يمكنك ان تحصل على السعادة والهناء من دون قلب كبير، والقلب الكبير يحتاج الى قيم كبيرة». هكذا قال مرة، ومسيرته الشخصية والمهنية ليست سوى مرآة وافية لدواخله واقتناعاته الفكرية والروحية والسياسية والاجتماعية.

بعد اعمال وكتب عن سيرته ومسيرته ونجاحاته وانجازاته في عالم الطب، ها هو فيليب سالم يصدر عملا بعيدا كليا من عالم الطب، لكنه يلامس ايضا انشغالاته بشفاء لبنان هذه المرة. كتابه «رسالة لبنان ومعناه» الصادر عن «دار نوفل» («هاشيت انطوان») يشكل عصاره فكر البروفسور ورؤيته الى لبنان الوطن والحضارة، وموقعه السياسي في رمال المحيط المتحركة. الكتاب الذي قدم له الباحث الدكتور فارس ساسين واصفا فيليب سالم بأنه ثابت على ايمانين هما لبنان والمعرفة، يضم مجموعة كبيرة من المقالات والخطابات والمداخلات التي نشرت في مناسبات معينة منذ التسعينات حتى اليوم فوق صفحات «النهار»، لكنها انضوت في الكتاب ضمن محاور محددة هي: «لبنان: الرسالة والمعنى»، «في السياسة اللبنانية»، «الانتشار اللبناني»، «اعلام واصدقاء»، «العالم العربي والشرق الاوسط»، «في السياسة الاميركية»، «قضية الصحة وشرعة حقوق الانسان»، واخيرا «في تخريج الاجيال الجديدة».

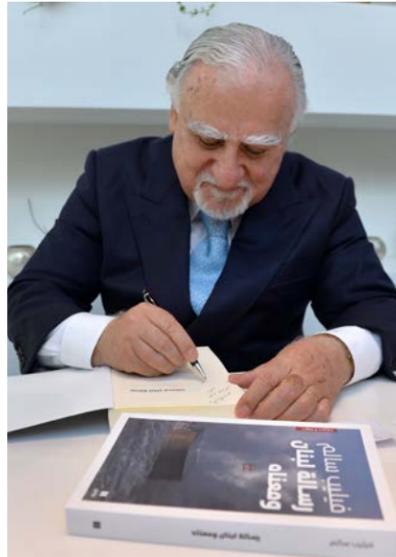
مهد البروفسور سالم للفصول الذي يضمها الكتاب بمقالتين تحت عنوان الثوابت، حدد فيهما ما لا وجود للبنان من دونه. في كلمة نشرت في «النهار» عام 1999، تحدث عن الشاعر المعروف الاخطل الصغير (بشارة الخوري 1885

- 1968) الذي رافقه في مراحل مرضه الاخيرة ومن ثم الى مثواه الاخير. الا انه يشير في المقالة الى ان كاتب قصيدة «يا عاقد الحاجبين» (غنثها السيدة فيروز) كان قد مات قبل موته الجسدي بسبب الفقر والعوز في غياب اي دعم رسمي وتقدير للمبدعين في وطننا، «هذا الشرق لا يكرم مبدعيه الا بعد ان يواروا في الثرى». وهذا ما حصل مع الاخطل الصغير الذي جاءت الدولة في اربعينه لتقدم المال لبناء تمثال له.

من هذا الباب يدخل سالم ليقترب فاعلية «بيروت عاصمة الثقافة العربية» التي شهدها ذلك العام، وي طرح السؤال: ماذا بقي من الثقافة العربية؟ ماذا بقي من بيروت؟ لقد بقيت «اشياء من ثقافة... اشياء من مدينة». لكنه يضيف انه اذا كانت العواصم العربية لفها الظلام وزنرتها اصوات الرصاص وانطقت فيها مشاعل الابداع، فان بيروت هي كوة الامل الباقية، لانها المدينة الوحيدة التي ما زالت تتمتع بهامش من الحرية التي هي شرط اساسي للثقافة والابداع. الحديث عن الاخيرين يقودنا حتما الى قضية اساسية في هذه العملية هي التربية والتعليم.

هنا، يأخذ سالم على مدارسنا وجامعاتنا ان التعليم لا يتم فيها الا بواسطة التلقين الذي يقود الى تخدير العقل بدلا من تعزيز التفكير والحس النقدي عند الطالب. يصف هذه التربية بالعتيقة، معتبرا انها «احد اهم اسباب تخلفنا الحضاري وعدم قدرتنا على الابداع. الهدف الاساسي للتعليم ليس الحصول على المعرفة، بقدر ما هو تحرير العقل وترويضه، تحريره من الخرافة والخوف، وترويضه للتعاطي مع العالم والعلم». يرى سالم ان هجرة العقول هي المصيبة والمؤامرة الحقيقية ضد منطقتنا ف«العرب لم يعوا بعد معنى الثروة. ان الثروة الحقيقية لا تكمن في الارض، ولا في النفط او المال، بل في الانسان وقدرته على الابداع».

هذا الكلام يمهّد حكما للفصل الاول الذي يبحث في لبنان الرسالة الحضارية والثقافية والاجتماعية. في مقالته التي نشرها في «النهار» عام 2001، يستشهد سالم بصديقه الاميركي الذي قال له مرة: «اذا زرت لندن تزور انكلترا، واذا زرت باريس تزور فرنسا، واذا زرت روما تزور ايطاليا، لكنك اذا زرت بيروت تزور العالم كله». وانطلاقا من مقولة البابا يوحنا بولس



البروفسور فيليب سالم يوقع كتابه.

الثاني الشهيرة بان «لبنان اكثر من وطن، انه رسالة»، يحيي سالم عن هذا الوطن الذي عكس نموذجاً فريداً من التعايش والتسامح والاعتدال والانفتاح... نموذج مناف للكيان العربي المؤسس على العنصرية. يرى ان لبنان يشكل مصدر قلق لهذا العدو الذي سيحاول جاهدا قتل هذا النموذج الحضاري المضيء. بل ان كان هناك دولة في هذا الشرق لا تريد قيامة لبنان، فهي اسرائيل. ويرى ان معنى لبنان وجوهه يقومون على اربعة مداميك هي: الانصهار المسيحي - الاسلامي الذي جعل اللبنانيين ينسجون الحرب الاهلية بسرعة وينغمسون في التفاعل الخلاق في ما بينهم، الحرية التي لا يستقيم ابداع علمي وثقافي من دونها، الديمقراطية رغم ان «النظام السياسي اللبناني يحتاج الى تغيير جذري في هيكليته»، اخيرا التعددية الحضارية والعالمية في لبنان. وفي هذه النقطة يسهب في الحديث قائلا انه «بالاضافة الى التراث الحضاري الديني المتراكم بفعل وجود 18 طائفة مختلفة في لبنان وتفاعلها، هناك الثقافات الاخرى المتعددة كالثقافة العربية، والفرنسية، والانغلو ساكسونية، وتخال ان ثقافات العالم كلها تتعايش في هذا الوطن الصغير».

في اختصار، يؤمن سالم بقوة بأن ثالوث التعددية الحضارية والحرية والديموقراطية هي قوة لبنان الحقيقية.

على مدى صفحات الكتاب، نلاحظ هذا الهاجس الوطني عند البروفسور المنتور، واصراره على ان العلم والعقل هما السبيل الى خلاص لبنان من افاته المزمته، وايضا خلاص العرب من المستنقع الحضاري الذي يطوقهم بعدما كانوا رواد الحضارة فعلا. في مقالة ملفته نشرت عام 1995 في «النهار»، تطرق سالم الى ازمة المهاجرين اللبنانيين والعرب في اميركا. راي ان فقدان الهوية هو اخطر ما يصيهم، فضياع الهوية هو «فقدان جزء من نفسك». يروح يذكر باننا «سلالة حضارة عمرها ستة الاف عام، فاسلافنا خلقوا الابدعية، وعرفوا العالم بالجر والكيمياء وعلم الفلك والطب. ظل كتاب ابن سينا «القانون في الطب» الكتاب المدرسي الرئيسي للطب في جامعات اوربية حتى القرن الرابع عشر. كان العرب في تألقهم عندما كانت اوروبا في العصور المظلمة، واميركا لم تكن حتى موجودة».

التذكير بهذا التراث لا يعني بتاتا ان نكون ماضويين، بل مطلوب منا نقده وتقييمه وتنقيته بحسب سالم، خصوصا وانه صار عقبة في وجه تقدمنا. يعتبر ان التحدي الابرز يكمن في فرز الصالح عن الطالح من التراث، والقابل منه للحياة. كما ان الديانات السماوية الثلاث ولدت هنا في ارضنا، مشيدا بالخصل العربية الحميدة والانسانية على رأسها الكرم والتكافل الانساني.

في المختصر، نكتشف في هذا الكتاب فيليب سالم رجل السياسة بكل ما للكلمة من معنى. ليس السياسة بمعنى الحياتي الضيق، بل بمعناها الواسع: نحن امام رجل فكر يتمتع برؤية شاملة نقية واضحة عن لبنان الوطن المنشود، وكيفية معالجة افاته ومشكلاته بخطوات عملية ومحددة. بروفسور وصل الى ما وصل اليه اليوم من دون ان يقلع جذوره، بل تراه متمسكا بها، فخورا ومزهوا بتراثه وهويته العربية، داعيا ايضا الى الانفتاح وعدم الانغلاق.

لعل بعض القراء لن يوافقوا حتما على نظرتة السياسية الى بعض الاستحقاقات التي عاشها لبنان. الا ان الكل سيوافق على ان كل طروحاته تنبع من قلب رجل نبيل صادق ذي هم وطني حقيقي، هو الذي صار يأخذ على انسان اليوم اهتمامه بالمال والنجاح المادي على حساب القضايا الانسانية النبيلة.